تضيق عن جيشه الدنيا

قال في جعفر بن كيغلغ ولم ينشده إياها:

[البسيط]

حَاشَى الرَّقِيبَ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ
وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلَّتْ بَوَادِرُهُ(١)
وَكَاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ
وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لَا تَخْفَى سَرَائِرُهُ(٢)
لَوْلَا ظِبَاءُ عَدِيٍّ مَا شُغِفْتُ بِهِمْ
وَلَا بِرَبْرَبِهِمْ لَوْلَا جآذِرُهُ(٣)
مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فِي أَنْيَابِهِ شَنَبٌ
خَمْرٌ يُخَامِرُهَا مِسْكٌ تُخَامِرُهُ(٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. حاشاه: توقّاه. غيض الدمع: أنقصه وحبسه. انهلّت: انصبّت. البوادر: السوابق. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني؛ إنّها رحلة الفراق والغربة، لقد حاول جاهداً حبس دموعه، ولكن مشاعره غلبته، فإذا بدموعه تُعلن عن عزيمته ونيّته تتكشّف عن حقيقة أمره، فعلم الرقيب بذلك.

(٢) البين: الفراق. السرائر: خفايا النفس. الحبّ لا تخفى دلائله، فالنظر يكشف عمَّا تكِنّ السرائر، لذا فمهما حاول المحبّ إخفاء مشاعره فلا بدّ لها من منفذ فيُفتضح أمره، ولعلّ البكاء أيسر سبيل.

(٣) يقصد بالظباء النسوة. وعديّ: بطن من قريش. الربرب: القطيع من البقر الوحشي. الجآذر، الواحد جؤذر: ولد البقرة الوحشية. يروى «ما شقيت» بدلاً من «ما شُغِفت». شرع الشاعر يتغزّل بعذارى بني عديّ القرشيين؛ إنهن كالظباء، رقّة وأناقة وظرفاً ورشاقة، ولقد تعلّق قلبه بهن حتى بمن رزقن بأطفال صغار لجمال جماعتهن.

(٤) الحوراء: الشديدة سواد عينيها وبياضهما مع اتساعهما. الشنب: الحِدّة في الأسنان، وقيل: برد وعذوبة. يُخامرها: يُخالطها. يُطلعنا الشاعر على سبب حبّه لهؤلاء النسوة؛ إنهن حورٌ، ذوات عيون كعيون المها، يفترن عن أنياب بيضاء يقطرن خمراً مسكراً وريقاً عذباً يبعث على القبل.

نُـعْـجٌ مَـحَـاجِـرُهُ دُعْـجٌ نَـوَاظِـرُهُ
حُـمْـرٌ غَـفَـائِـرُهُ سُـودٌ غَـدَائِـرُهُ[١]
أَعَـارَنِـي سُـقْـمَ عَـيْـنَـيْـهِ وَحَـمَّـلَـنِـي
مِـنَ الـهَـوَى ثِـقْـلَ مَـا تَـحْـوِي مَـآزِرُهُ[٢]
يَـا مَـنْ تَـحَـكَّـمَ فِـي نَـفْـسِـي فَـعَـذَّبَـنِـي
وَمَـنْ فُـؤَادِي عَـلَـى قَـتْـلِـي يُـضَـافِـرُهُ[٣]
بِـعَـوْدَةِ الـدَّوْلَـةِ الـغَـرَّاءِ ثَـانِـيَـةً
سَـلَـوْتُ عَـنْـكَ وَنَـامَ ٱلـلَّـيْـلَ سَـاهِـرُهُ[٤]
مِـنْ بَـعْـدِ مَـا كَـانَ لَـيْـلِـي لَا صَـبَـاحَ لَـهُ
كَـأَنَّ أَوَّلَ يَـوْمِ الْـحَـشْـرِ آخِـرُهُ[٥]

---

(١) نعج، الواحد أنعج، والنعج: البياض. المحاجر، الواحد محجر: ما يبدو من النقاب. الدُّعج، الواحدة دعجاء: سواد العين مع سعتها. الغفائر، الواحدة غفارة: الخرقة تضعها المرأة على رأسها لتمنع الدهن من أن يبلّ خمارها. الغدائر، الواحدة غديرة: الضفائر من الشعر. يصف الشاعر رؤوس هؤلاء النسوة، إنهن يمتزن بجمال العيون واتساعها وسوادها مع شدّة بياضها، وهنّ يحتجبن فيضعن الخُمرُ لتزيد من جمالهن ويضعن الغفائر لئلا تبتلّ خمرهن طيباً، فهن يتطيّبن، وقد أسدلن ضفائرهن على صدورهن، فتزيدهن جمالاً على جمال.

(٢) سقم عينيه: عنى بذلك فتور محبوبته لتنعّمها. المآزر، الواحد مئزر: الملحفة تُشدّ على وسط المرأة. انتقل الشاعر من جمع النسوة إلى واحد منهن جعله فتور عينيها صريع هواها، مريضاً مدنفاً، فهو ثقيل الحركة كحركة ردفيها الثقيلين.

(٣) يضافره: يساعده. مصيبة الشاعر أن جفاء حبيبته الوطأة عليه ويُساعده في ذلك قلبه الذي لا ينفك يهيم بمن يُحبّ.

(٤) و (٥) لم يُحسن الشاعر التخلّص إلى الممدوح بعدما انتقل من الغزل بمحبوبته، وتركها معلقة بالهواء لا يدري المرء ماذا حلّ بتلك العلاقة. لقد عاد جعفر بن كيغلغ إلى كرسي الإمارة بعد عزله. وهذا ما جعل الشاعر ينسى حبيبته ويسلو عنها فتعرف عيناه طعم النوم، وقد كان ليله طويل السهاد حتى ليبدو آخره كيوم الحشر، فإذا بفجر جديد يفكّ لغز هذه المشكلة.

غَـابَ الأميـرُ فَـغَـابَ ٱلْـخَـيْـرُ عَـنْ بَـلَـدٍ
كَـادَتْ لِـفَـقْـدِ ٱسْـمِـهِ تَـبْـكِـي مَـنَـابِـرُهُ(١)
قَـدِ ٱشْـتَـكَـتْ وَحْـشَـةَ الأَحْـيَـاءِ أَرْبُـعُـهُ
وَخَـبَّـرَتْ عَـنْ أَسَـى الـمَـوْتَـى مَـقَـابِـرُهُ(٢)
حَـتَّـى إِذَا عُـقِـدَتْ فِـيـهِ الْـقِـبَـابُ لَـهُ
أَهَـلَّ لِـلَّـهِ بَـادِيـهِ وَحَـاضِـرُهُ(٣)
وَجَـدَّدَتْ فَـرَحـاً لَا الْـغَـمُّ يَـطْـرُدُهُ
وَلَا الـصَّـبَـابَـةُ فـي قَـلْـبٍ تُـجَـاوِرُهُ(٤)
إِذَا خَـلَـتْ مِـنْـكَ حِـمْـصٌ لَا خَـلَـتْ أَبَـداً
فَـلَا سَـقَـاهَـا مِـنَ الْـوَسْـمِـيِّ بَـاكِـرُهُ(٥)
دَخَـلْـتَـهَـا وَشُـعَـاعُ الـشَّـمْـسِ مُـتَّـقِـدٌ
ونُـورُ وَجْـهِـكَ بَـيْـنَ الْـخَـلْـقِ بَـاهِـرُهُ(٦)
فـي فَـيْـلَـقٍ مِـنْ حَـدِيـدٍ لَـوْ قَـذَفْـتَ بِـهِ
صَـرْفَ الـزَّمَـانِ لَـمَـا دَارَتْ دَوَائِـرُهُ(٧)

---

(١) لقد ارتبط الخير بذلك الأمير، فبغيابه انعدم وجود الكرم، وبالتالي انعدم المشيدون بذكره على المنابر.

(٢) وحشة الأحياء: خلوّها من البهجة والسرور. الأربع، الواحد ربع: المنازل. الأسى: الحزن. عمّ الحزن تلك الربوع بعزل ذلك الأمير فالمنازل وساكنوها ألمّت بهم الأحزان، حتى الأموات شعروا بذلك المصاب فجرفوا في قبورهم.

(٣) و (٤) القباب: السرادقات تقام فيها الزينة في الأفراح، عُقدت: نصبت. أهل للّه تعالى: جأر بالدعاء الناس شكراً للّه عزّ وجلّ. وفجأة أقيمت القباب للأفراح، فإذا بسكّان البوادي والحواضر يجأرون بالدعاء للأمير شكراً للّه تعالى على نعمه، لعلمهم أن حدثاً سعيداً حدث له؛ إنه رجوعه إلى دار الإمارة. ولقد عمّ الفرح الديار فاختفت الأحزان وامتلأت القلوب غبطة، فلا متّسع لسواها من العشق وشدّة الصبابة.

(٥) الوسمي: أول المطر. يرى الشاعر أن سرّ حياة مدينة حمص وجود ذلك الأمير، فإذا خلت منه انعدم وجود المطر، بشرى الخير وحصول مواسم العطاء.

(٦) و (٧) إن دخول الممدوح، مع إطلالة الفجر، الذي يبشّر بعهد ميمون، فإذا بنور =

تَـمْـضِـي الـمَـوَاكِـبُ وَالأَبْـصَـارُ شَـاخِـصَـةٌ
مِـنْـهَـا إِلَـى الـمَـلِـكِ الـمَـيْـمُـونِ طَـائِـرُهُ(١)
قَـدْ حِـرْنَ فِـي بَـشَـرٍ فِـي تَـاجِـهِ قَـمَـرٌ
فِـي دِرْعِـهِ أَسَـدٌ تَـدْمَـى أَظَـافِـرُهُ(٢)
حُـلْـوٍ خَـلَائِـقُـهُ شُـوسٍ حَـقَـائِـقُـهُ
تُـحْصَى الْحَصَى قَبْلَ أَنْ تُـحْصَى مَآثِرُهُ(٣)
تَـضِـيـقُ عَـنْ جَـيْـشِـهِ الـدُّنْـيَـا وَلَـوْ رَحُـبَـتْ
كَـصَـدْرِهِ لَـمْ تَـبِـنْ فِـيـهَـا عَـسَـاكِـرُهُ(٤)
إِذَا تَـغَـلْـغَـلَ فِـكْـرُ الـمَـرءِ فِـي طَـرَفٍ
مِـنْ مَـجْـدِهِ غَـرِقَـتْ فِـيـهِ خَـوَاطِـرُهُ(٥)

= الممدوح يغلب نور الشمس بضياء الفرح، لما يُصاحبه من جند متسربلين بالسلاح لدفع البلاء عن الناس، فإنهم قادرون على ردّ عاديات الزمان وصروفه، لذا فلن يُقهر أحد من رعيَّته.

(١) يتهادى الموكب، وجمهور الرعيَّة ينظرون بدهشة وإعجاب لما يُشاهدون. والدعاء يصحب ذلك الملك الموفّق باليمن والبركات.

(٢) إن الرعية في حيرة لما يرون، إنه من البشر وليس كسائر البشر، فهو جميل بهيّ الطلعة، قمر يشعّ ضياء، وقد ارتدى حُلّة الأسد لما يُوحيه من شجاعة وإقدام، فسيوفه تقطر من دماء أعاديه.

(٣) الشوس، الواحد أشوس: من ينظر بمؤخر عينيه تكبّراً. المآثر: المفاخر. الحقائق: هم من على المرء حفظهم وحمايتهم. إن الممدوح ذو أخلاق حميدة؛ فأبناء بلده وجيرانه يحتمون بمنعته لذا فهم متكبّرون يمتنعون عن الأعداء. ومن مبالغات الشاعر أن الحصى يُمكن عدّه بينما أخلاق ممدوحه كثيرة بحيث لا يُمكن حصرها وعدّها.

(٤) رحبت: اتّسعت، ولكثرة جيش الممدوح ضاقت الأرض رغم اتّساعها بما لديه من عسكر، وصدره يتّسع رحابة وحِلماً لصحبه ورعيَّته.

(٥) تغلغل: دخل في الشيء وأمعن. وممَّا يُحيّر المرء أن مظاهر مجد هذا الممدوح متعدّدة الجوانب يغرق فيها فكره ويتيه فلا يستطيع تحديد معالمها ويعجز عن تسميتها.

تَحْمَى السُّيُوفُ عَلَى أَعْدَائِهِ مَعَهُ
كَأَنَّهُنَّ بَنُوهُ أَوْ عَشَائِرُهُ[١]

إِذَا ٱنْتَضَاهَا لِحَرْبٍ لَمْ تَدَعْ جَسَداً
إِلَّا وَبَاطِنُهُ لِلْعَيْنِ ظَاهِرُهُ[٢]

فَقَدْ تَيَقَّنَّ أَنَّ ٱلْحَقَّ فِي يَدِهِ
وَقَدْ وَثِقْنَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَاصِرُهُ[٣]

تَرَكْنَ هَامَ بَنِي عَوْفٍ وَثَعْلَبَةٍ
عَلَى رُؤُوسٍ بِلَا نَاسٍ مَغَافِرُهُ[٤]

فَخَاضَ بِالسَّيْفِ بَحْرَ الْمَوْتِ خَلْفَهُمُ
وَكَانَ مِنْهُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ زَاخِرُهُ[٥]

حَتَّى ٱنْتَهَى ٱلْفَرَسُ ٱلْجَارِي وَمَا وَقَعَتْ
فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ جِيَفِ الْقَتْلَى حَوَافِرُهُ[٦]

كَمْ مِنْ دَمٍ رَوِيَتْ مِنْهُ أَسِنَّتُهُ
وَمُهْجَةٍ وَلَغَتْ فِيهَا بَوَاتِرُهُ[٧]

---

(١) و (٢) تحمى: يشتدّها نهارها. العشائر، الواحدة عشيرة: أقرباؤه وذووه. إنه لا يواجه أعداءه خالياً من سلاح ومؤازرين، فإذا بهم بمثابة البنين والعشيرة الأقربين. وإذا جرّد تلك الجماعة لمقاتلة الأعداء عملت تقطيعاً بهم، فلم تترك منهم جارحة إلّا قطعتها إرباً، فإذا بالعيون ترى ما يُرعب.

(٣) إنه على يقين بأنه مؤزّر بنصر اللّه تعالى وأن الحقّ إلى جانبه، ومن كان نصر اللّه تعالى إلى جانبه فلن يُهزم أبداً.

(٤) و (٥) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. ثعلبة وثقلبة من قبائل العرب. المغافر، الواحد مغفر: زردية تُنج على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة كان من نتيجة تلك المعارك أن الممدوح فتك ببني عَوْف وحنظلة فقطع أوصالهم، وفصل رؤوسهم عن أجسادهم في بحر طام أغرقهم بلججه، وهو عائم لم تتخطّ قدميه رغم صخبها وعنفها.

(٦) و (٧) يروى «جثث» بدلاً من «جيف». إن الممدوح يمتطي جواداً يطير فوق جثث القتلى لكثرتهم، فقد غطّوا الأرض بأجسادهم، فلم يعد موطئ لقوائمه على الأرض. =

وَحَـائِـنٍ لَـعِـبَـتْ شُـمُّ ٱلـرِّمَـاحِ بِـهِ
فَـالْـعَـيْـشُ هَـاجِـرُهُ وَالـنَّـسْـرُ زَائِـرُهُ(١)
مَـنْ قَـالَ لَـسْـتَ بِـخَـيْـرِ الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـمِ
فَـجَـهْـلُـهُ بِـكَ عِـنْـدَ الـنَّـاسِ عَـاذِرُهُ(٢)
أَوْ شَـكَّ أَنَّـكَ فَـرْدٌ فـي زَمَـانِـهِـمِ
بِـلَا نَـظِـيـرٍ فَـفِـي رُوحِـي أُخَـاطِـرُهُ(٣)
يَـا مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ فِـيـمَـا أُؤَمِّـلُـهُ
وَمَـنْ أَعُـوذُ بِـهِ مِـمَّـا أُحَـاذِرُهُ(٤)
وَمَـنْ تَـوَهَّـمْـتُ أَنَّ ٱلْـبَـحْـرَ رَاحَـتُـهُ
جُـوداً وَأَنَّ عَـطَـايَـاهُ جَـوَاهِـرُهُ(٥)
لَا يَـجْـبُـرُ الـنَّـاسُ عَـظْـمـاً أَنْـتَ كَـاسِـرُهُ
وَلَا يَـهِـيـضُـونَ عَـظْـمـاً أَنْـتَ جَـابِـرُهُ(٦)

= ولطالما ارتوت رماحه من دماء أعدائه فانتزعت المهج من أصحابها وتركتهم صرعى بلا حِراك ولطالما شربت سيوفه من دمائهم حتى ارتوت.

(١) الحائن: الهالك. يروى «سُمر» بدلاً من «شُمّ»: الطوال. والصورة المرعبة للموت تتمثّل ببطل لقي مصرعه برماح لعبت به، فإذا به يهوي معفّراً احتضنته الأرض، وقد فارقته الحياة ولازمته النسور تمزّق جسده.

(٢) فثمَّة من يعتقد أن الممدوح كغيره من البشر وليس بخير الناس، فهو جاهل، ومن كرم أخلاقه، فالممدوح يعذره على جهله.

(٣) أخاطره: أراهنه. ومن مغالاة الشاعر أن جعل ممدوحه فرداً مميَّزاً لا يُوجد سواه في مستواه، فلو شكّ أحد الناس في ذلك، فالشاعر على استعداد لمراهنته ليقينه أنه سيربح الرهان من ذلك الشاكّ.

(٤) و (٥) ألوذ: ألجأ. أؤمّله: أرجوه. أعوذ: ألجأ وأحتمي. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه ملجأ يحتمي بجواره، وهو يأمل منه خير العطاء، والشاعر يحذّر من الفقر والعوز، ولقد حمله الوهم على أن يرى يده بحراً يفيض جوداً فيغوص على الجوهر واللؤلؤ ليغتني بها من معين بحره.

(٦) الجبر: إصلاح الكسر. الهيض: الكسر بعد الجبر إذا كان الجبر غير سليم. ومن =